هذا هو الرجل الذي رباه عامي من عامة التجار فبلغ بحدة ذهنه وتوفره على الدرس مبالغ الاعاظم الكبار وكانت حياته حياة جهد وعمل لاقى من الدهر الأ لاقي واضطهده قومه وحسده معاصروه إلا انه عرف قدره في علمه على ما كان هناك من الصعوبة في معرفة الرجل في تلك القرون في حياته . قال ابن خلكان وكان الناس عقيب موته يثنون عليه ويذكرون فضله واديبه . وياقوت الرومي في ولوعه بالعلم والرحلة كمعاصره ابن سعيد المغربي ذاك كان في الشرق وهذا في الغرب فحيا الله زماناً ينبغ فيه امثالهما

العلم الصحيح

نشرتها بجريدة الظاهر اولا

قالوا العلم علمان علم الابدان وعلم الاديان او دنيوي وديني فالدنيوي علم ما فيه صلاح المعاش وحفظ النظام في عالم الكون والفساد والديني كل ماله مساس بالمعاد وتهذيب النفس والابتعاد عن المنكرات في هذه الفانية للظفر بالباقيات الصالحات في تلك الدار الباقية

كان العلم الديني لاول امره موجزاً مندمجاً لم يتعد قواعد مقررة واصولاً نافعة فكان العربي يقصد الرسول عليه السلام يعلمه الدين في ساعة ثم يحيله على القرآن ويقول له اذهب راشداً وبشر عشيرتك واهلك فقد عرفت من الدين جوهره وسره وما ينبغي له . ثم ثم دام الاسلام الى السذاجة حتى قامت قائمة العصبيات من اجل التنازع على الملك وتجاذب حبل السلطة فمزج الدين بالسياسة ودخل في الاسلام من لا يهمه منه غير المغانم وراح بعضهم يدسون ما لم يقل فيما قيل وكثر المنافقون ممن سعوا بالدين في سرهم وهم من اتباعه في جهرهم وانشأوا يلبسون ثياب الاصدقاء وهم له اعداء ماكرون

دسوا عوامل افسادهم وفي القوم يومئذٍ صفوة من الاخيار توفروا على معارضة البدع والموضوعات بكل لسان و بنان بل بكل سيف وسنان وكانوا على اخلاصهم وتأثيرهم كلما استاصلوا شأفة فاسد نبض من الافسد نابض ورجال السياسة واكثرهم لا يرجع في الغالب الى رأي ومذهب يدهنون من وراء ذلك لحملة الدين و يبذلون لهم ما يستعونهم به لينطقوا بالسنتهم ولا يفسدوا عليهم امرهم اذا رفعوا اصواتهم ونعوا عليهم تبديلهم لما أنزل والصاقهم به ماليس منه . ولما رأى العقلاء عائث الفساد يدب دبيبه في علوم المعاد خافوا ان يتدرج من العبث بالاعراض الى العبث بالجواهر فلم يروا بدًا من التدوين والتقييد والدلالة على مواضع الضعف والسخف ليبدو السليم لا شائبة فيه . وانت خبير بما يقتضي ذلك من التطويل دع عنك ما يتخلله بالطبع لان في القائمين به العالم العامل وفيهم صاحب البدعة والمقالة

مضى على هذه الحال ردح من الزمن وعلوم الدين لم تمتزج بشيء من علوم الدنيا الى ان دخلت علوم الحضارة في الملة وسموها علوم الاوائل ورأت من بعض خلفائنا من اخذ بيدها وهيأ لها اسباب انتشارها فعندها كثرت المذاهب والاراء ونشأ العراك الاول بين العلوم الدينية والعلوم الدنيوية اي بين الدين القائم بالتسليم وبين الفلسفة المبنية على البرهان

وظلت حال العلم الديني تابعة لمجرى السياسة ان جاء عاقل من الامراء والملوك يكل امره لجهابذة من المحققين ينظرون فيه وهم مؤتمنون مأمونون واذا ولي رقاب الناس جاهل ينزل نفسه في كل المنازل فيتولى من الخلق امور دنياهم ودينهم ويقرب اليه كل من يتابعه على اهوائه ولا ينكر عليه فعلاته والعقلاء بمعزل لاينطقون إلا كارهين . ربما تدرعوا الخمول وآثروا الانقطاع على الدخول في المجتمع لامحاضه النصح وتخليصه من المفاسد الطارئة عليه . نعم ان التاريخ لم يخل من وجود عقلاء

في كل دور من ادواره ولكن توهم ضئيلة لاتنفع وصوتهم خريد لايسمع اذا نسبتهم لاولئك المنافقين في خدمة الآمرين والناهين وقد قلّ عددهم كثيراً في هذه الديار خصوصا بعد الدولتين النورية والصلاحية وصار العلم اشبه بتقاليد ورسوم منه بعلم وعمل ومناطيق ومفاهيم .

وما فتئت العادات يتخيلها بعضهم من الدين ويدسونها فيه وللجهل الكلية النافذة في الهيئة الاجتماعية الى ان كان القرن التاسع والعاشر وما يليهما من قرون الهجرة وهي من العصور المظلمة في تاريخ الاسلام حقيقة فعندئذ قل المميز والمفكر وبطلت علوم الحكمة جملة واحدة وصار من يتعاطاها في نفسه وبين خاصته كمن يأتي امراً إداً ويخون دينه وامته وبطل النظر في الاصول وتحتم على كل عقل ان لاينظر في غير الفروع مما املته خواطر المتأخرين . فاصبح بذلك يعد العالم كل العالم من يحفظ من هذه الفروع اكثر . اعتبر ذلك بما تتلوه في تراجم اعيان العلماء في هذه القرون فانك لاتراها تتعدى الاقوال والاراء واهل كل جيل يقدسون قول من سلفهم ولو ببضع سنين نعم انك لو انصفت لا تكاد ترى لهم تأليفاً تقرأ فيه نور العقل والخلاص من التقليد البحت ولقد اتت ايام في معظم الاصقاع الاسلامية حرم النظر فيها حتى في الكتاب والسنة وعد الناظر فيهما محاولاً للخروج عن سنن الجماعة فاذا خالف فرد ما الفوه اهانوه ومن قاوم بفكره سجنوه او نفوه وشردوه واذا خافوا بأسه قتلوه وجعلوه عبرة ومثلاً للاخرين

تأصلت الاوهام فعدت من اقدس القربات وسار الناس مع تيار الجهل وتقديس اقوال ادعياء العلم والتقوى وصدرت الاحكام بعوامل الاوهام وغدت هذه البلاد كبرج بابل في التبلبل والتشويش اتخذت كل منها لها ائمة واولياء وانشأت تكبر امرهم وتدعي لهم مقاما ماادعوه لانفسهم وراح الفقيه يكفر الصوفي

والصوفي ينقم على الحديثي والاصولي يحمل على الفروعي واشتغل اهل كل قطر بل اهل كل مصر بتقديس من تواطأوا على تقديسهم والطعن فيمن عداهم ممن لم يصوروا لهم بالصورة المناسبة لما وقر في نفوسهم وركز في طبائعهم وعشش في تخيلاتهم . وهكذا امتزجت علوم الدين بالمشاغبات والمماحكات لو بعث الشارع واصحابه لرأوا الاختلاف بين ماورد وما صار اليه مستحكماً بعيد الاطراف يصعب الجمع بينهما كما يصعب الجمع بين النقيضين . ماذا اصف من تسرب الجهل الى العبث بالعقول في تلك القرون وانك لترى اثراً من آثاره لهذا العهد عند بعض من فطموا انفسهم عن النظر في المعقولات منا فترى كلمات التضليل والتكفير والتبديع والتفسيق اسرع الى افواههم من الماء الى الحدور وتشهد الغر الغمر يتحكم بالجنة فيعطيها لمن يشاء ويحرمها من يشاء فوا رحمتاه على اناس اضاعوا فضل عقولهم في الجدل ولكم كان الخير يأتي من جهتها لو اشتغلت بالمفيد ونبذت الاهواء ظهرياً ولكن اذا اراد الله بقوم سوءاً رزقهم الجدل ومنعهم العمل

قلت فيما سلف ان علوم الدنيا دخلت في الملة لما رأت من يعضدها من رجال السياسة وكان ذلك في القرن الثاني . بيد انها لم تنتشر الانتشار المطلوب الا في القرن الثالث . شاعت قرنين ثم اخذت تضعف الى اواخر القرن السابع ايام قل المشتغلون بها ولو على طريقة نظرية بعلوم العقل التي لا قائمة لأمة بدونها مهما اخلصت في دينها . واذا استقريت تواريخهم تجد المتلبسين بشعار العلماء لا يعدون في جملتهم ذاك الرياضي والجغرافي وربما فضلوا عليهما المعمار والمزور . من اجل هذا نرى المدارس على تفنن القوم في انشائها بعد القرون الوسطى فنازلاً خاصة بالفقيه والمحدث والقاريء والرباطات للمجذومين والمعدمين والكسالى ولم نجد مدرسة لهم الا بعض مدارس الطب موقوفة على الرياضيين والطبيعيين والفلكيين

والمؤرخين كأن علومهم هذه اباطيل لا تصح الا عانة عليها وحسب الرياضي ان يغضي الفقيه عنه ما دامت الحال بين هبوط وصعود ولا جدر بها ان تدعى سقوطا الى منتصف القرن الماضي ايام اخذ السلطان عبد المجيد في البلاد العثمانية ومحمد علي باشا في هذا القطر يسهلان السبل لهذه العلوم ويعدان اهلها في مصاف العلماء وأنشئت المدارس لتعليمها وغدا المشتغلون بالعلوم الدنيوية حزباً والمتوفرون على تعليم العلوم الدينية حزباً آخر على انه لم تحمد عودة تلك العلوم الدنيوية التي سماها بعضهم عصرية وبعضهم دعاها حديثة لما نتج عنها من حركة كانت اشبه برد فعل ماثلت الامة معها صائماً اخذ منه الجوع فلم يجد ما يطعمه حتى ساقته الاقدار الى مائدة ترف موسر وقد حوت ما طاب وحلا من صنوف الاطعمة والحلواء فاخذ يلتهم ما وصلت يده اليه بدون تروٍ ويزدرده بلا مضغ ويمزج باردة بحاره وحلوه بحامضه ويؤخر ما يقتضي تقديمه ويقدم ما يحسن تأخيره . ونشأت ناشئة لم تدر من العلم الحقيقي غير قشوره شربت مصة من مورده ظنتها غاية ما يرتوي به المرتوون وراحت تعد المروق غاية النور والازراء على النبوات من آيات الحكماء والطعن بالشرائع من عمل الجهابذة النحارير وانكار القديم مهما كان نفعه والتعلق بالحديث مهما ضؤل قائله من دواعي النهوض والاستنارة . وعلى الجملة ينبذون كل ما ليس لهم به علم من تراث اجدادهم حاسبين الصحيح منه والسقيم في مقام واحد مما حكين ولو بان لهم الراجح من المرجوح .

يقول فتية اليوم انه لانجاح للامة الا بنبذ ذلك القديم مباشرة والاخذ بهذا الحديث على علاته وفاتهم ان ما يسوغ في الغرب لا يتم في الشرق وان لكل امة طبيعة ومنازع لا مناص من مراعاتها وان اقامة مدينة جديدة في بادية اسهل من اصلاح مدينة قديمة لاغنية عن البناء فيها وان من العقل ان لا ينبذ ذلك القديم

بل يرجع فيه الى الاصل القليل و يؤخذ النافع منه ويترك ماعدا ذلك من تحريف المحرفين وضلالات المبتدعين والاخذ من هذا الحديث بالعلم الصحيح الذي تمس اليه الحاجة واطلاق الحكم للعقل يعمل معمله في طريقه .

العلم الصحيح هو الذي يبعث صاحبه على عمل النافع ولو كان في ذلك ضياع مصلحته الشخصية فلا يبالي حامله بغضب الرؤساء والزعماء ولا يستغويه رضى الغوغاء والدهماء . يتجشم المخاطر في نشر خاطر . و يركب كل صعب وذلول لاثارة مظلمات العقول .

العلم الصحيح هو الذي خلص من ضغط الاهواء السياسية والمذهبية وسلم من التأثيرات والغايات فلقنه صاحبه بريئاً من شوائب النزعات والنزغات واثر في نفسه تأثيراً مجرداً فاذا نطق بعده فلا ينطق الا بما يوحي اليه هاتف الفهم السليم والعقل الحكيم فلا يتعصب للآباء والجدود وما ألوفات المحيط وعادات الاهل والاقليم ويتحزب لشيخه واستاذه ولو تجلى له انهما عن طريق الحق ناكبون

العلم الصحيح هو الذي يحترم صاحبه بهآراء غيره ولو كانت مباينة لافكاره كل المباينة ولا يعدها سخافات وترهات فينكر كل مالا يعلم و يستكثر ما وعى ولا يعد حطة عليه ان يتسقط الحكمة انى وجدها وفي أي المظاهر ظهرت فيأخذ نفسه بالتعلم ولو شاب وجاوز الثمانين .

العلم الصحيح هو الذي تكون نتائجها كثر من مقدماته وفروعه خيراً من أصوله يأخذ له حامله من نفسه فلا يتكبر عن افادة ولا يستنكف من استفادة و يسعى الى بث ما يعرف في كل أفق و يعد البشر اخوة فلا يقصر في تعليمهم مما علم يقين ان صلاح الافراد سلم للوصول الى اصلاح الجماعة والمصلحة العامة هي ابداً موضوع نظر من رزق حظاً من هذا العلم

العلم الصحيح هو الذي يربي الملكات ويهذب النفوس فلا يتخدم صاحبه علمه اداة للغلبة بالباطل والادلال على الاقران والذهاب بفضل الشهرة والمحمدة الزائلة والنبيح والتنطس فمنح اللهم بفضلك هذه الديار شيئاً من هذا العلم وكثر فيها سواد اهله بمنك وحسن تسديدك

صفحة من تاريخ مصر

معربة عن مجلة الاكونوميست اوربين الفرنسوية للمسيو ادمون تيري

يبتدئ تاريخ مصر الحديث من عهد محمد علي مؤسس الامارة الخديوية الحاضرة ومحمد علي هذا ولد في الروم ايلي وهو رجل شجاعة وفرط ذكاء سعى فوفق الى ان ينصب والياً على القاهرة وحاكماً على القطر المصري سنة ١٨٠٥ وذلك بمساعدة المماليك الذين ابادهم بعد ست سنين من استلامه ازمة الحكم عند ما طمح هؤلاء النبلاء بعد ان كانوا عبيداً واجناداً وصوفين بحب السلب والنزوع الى الفتنة في تهديد قوته

بلغت مصر على عهد قدماء ملوك المماليك التركمان والجراكسة (١٢٥٤ـ١٥١٧) ارقى درجات الحضارة الشرقية ولكن كان الشعب يؤدي المغارم بطريقة وحشية قاسية ولم يكن حكمهم الذي دام ٢٦٣ سنة سوى سلسلة طويلة من الحروب الاهلية والمؤامرات وانقلاب في احوال القصور وجرائم وجنايات يباع فيها الدم بيع السماح . حتى ان السلطان سليم الاول العثماني لما استولى على مصر سنة ١٥١٧ رآها وقد استحكمت فيها الفوضى المطلقة فجعلتها خراباً يباباً

ولم تكن البلاد على عهد الفتح العثماني (١٧٩٨ ــ ١٥١٧) اسعد منها على عهد المماليك الذين عادوا بعد قليل واسترجعوا نفوذهم القديم واليك ما قاله